المحاضرة 7: الحداثة الشعرية في الجزائر:

مقاربة في تجربة الشاعر الجزائري "عثمان لوصيف"

تعريف الشاعر :

ولد عام 1951 في طولقة - ولاية بسكرة.

تلقى تعليمه الابتدائي، وحفظ القرآن في الكتاتيب، ثم التحق بالمعهد الإسلامي ببسكرة وترك المعهد بعد أربع سنوات، وواصل دراسته معتمدًا على نفسه، وبعد حصوله على شهادة البكالوريا التحق بمعهد الآداب واللغة العربية بجامعة باتنة وتخرج منه سنة 1984.

انخرط في سلك التعليم في وقت مبكر، وعمل أستاذا للأدب العربي بالمدارس الثانوية.

أحب منذ طفولته الموسيقى والرسم، وبدأ نظم الشعر في سن مبكرة. قرأ الأدب العربي قديمه وحديثه، كما قرأ الآداب العالمية.

من دواوينه الشعرية: الكتابة بالنار 1982 - شبق الياسمين 1986 - أعراس الملح 1988...

حصل على الجائزة الوطنية الأولى في الشعر 1990 .

ممن كتبوا عنه إبراهيم رماني في كتابه: أوراق في النقد الأدبي 1985 , وميلود خيزار في مجلة المجاهد 1988

توفي رحمه الله في 27 جوان 2018 بعد صراع مع المرض .

الشعر الصوفي عند الشاعر عثمان لوصيف:

لم يكن الخطاب الشعري الجزائري بمعزل عن الصوفية، إذ مدّ التصوف الإسلامي جذوره في أرض الجزائر مع الفتوحات الإسلامية. غير أن الخطاب الصوفي لا يكاد يذكر له حضور حقيقي إلا في النزر اليسير من النماذج الشعرية.

وتبدو هذه الكتابة الصوفية منفلتة من كل زوايا النظر المنهجية، فهي تجربة روحية يحتل فيها الجسد موقع الصدارة ممارسا إغراءا جماليا من نوع خاص، رافضا كل أشكال التنميط اللغوية، و إن كانت هناك إمكانية للحديث عن طبيعة هذه الكتابة ، فسيكون حديث بعقل التمييز لا بعقل التخصيص، و الصور الصوفية من شأنها أن تخلق عالمًا خياليا إيحائيا ينفصل بنا عن الواقع إلى ما فوق الواقع، فتتحول الكلمات إلى كائنات حية، وينقلب المعنوي إلى محسوس، و المحسوس إلى معنوي "و لا يعد عالم المثال بالنسبة إلى الصوفي عالمًا خياليًا أو توهميًا، و إنّما يتجلى كما هو في حقيقته بوصفه عالمًا واقعيا راسخًا في قلب عالم الظواهر..

نجد الصوفي يبحث دائما عن التشاكل بين عناصر الوجود، و نتيجة لذلك ينفي التناقص الظاهر بين الأشياء انطلاقا من وحدة الوجود، لأن الصوفية تنزع إلى استبطان حقائق الوجود و النفس رغبة في معرفة الأشياء من الداخل على حقيقتها لا كما تبدو من الخارج. ويقول الرمزيون: إن الشاعر يستطيع أن يعبر عن العالم الداخلي من خلال العالم الخارجي، أي من خلال المادة، و لكنها ليست المادة الحسية، و لا العقلية، و لا العلمية، وإنما هي المادة الروحانية التي استشففناها في نماذج الشعرية لبعض الشعراء الجزائريين المعاصرين: مصطفى الغماري، عبدالله العشي، وغيرهم.. ويهيمن رمز المرأة على الخطاب الصوفي الشعري الجزائري المعاصر، وهذا ما نجده عند الشاعر" عثمان لوصيف " الذي تحضر المرأة في شعره بنسبة كبيرة تنم عن نزعه خاصة، فهو يعشق الجمال و

يذهل أمام الحسن البديع المرأة التي تتحول في أشعاره إلى رمز مفعم بالدلالات: الحزن والإحساس بالغربة، والشوق إلى البدايات، والتوحد مع المطلق..

ويقول الشاعر في قصيدته" تلك صوفيتي":

" تلك صُوفِيَّتي
أن أطالعَ في نُورِ وَجْهِكَ
سِرّ الحياة
وسِرّ الغوايات
أنا أتَوضَأ بالعشق في ظلّ عينيكِ..."

يستوقفنا في هذا النص لفظ(العشق) الذي يعني في المعجم الصوفي إفراط المحبة، أو المحبة المفرطة.. فإذا عمّ الحبّ الإنسان بجملته، و أعماه عن كلّ شيء سوى محبوبه، وسارت تلك الحقيقة في جميع أجزاء بدنه، و قواه، و روحه، و جرت مجرى الدم في عروقه و لحمه، و غمرت مفاصله، فاتصلت بوجوده، و عانقت جميع أجزائه جسمًا و روحًا، و لم يبق فيه متسع لغيره....حينئذ يسمى ذلك الحبّ عشقا.

و المحبة اسم جامع لعدد من الصفات عند ابن عربي، و لذلك نراه يوحد الهوى و الحبّ، و الودّ و العشق، وفي عاطفة لها طبيعة واحدة تختلف بالصفات فتتغير عليها الأسماء. وهكذا يبدو لنا أنّ المحبة عاطفة واحدة، ولكنّها تتطوّر، و في كلّ مرحلة من تطورها تأخذ اسما خاصا، فالعشق كما رأينا هو إفراط في المحبة.

و لعلّ هذا هو الذي جعل الشاعر عثمان لوصيف يستحضر لفظ(العشق) في النص السابق للدلالة على عنف التجربة الصوفية لديه إلى حدّ أنّ الشاعر يتوضأ بالعشق ليتطهر من أدران الواقع كما يتطهر المصلي بالماء الطهور، أي أنه يسمو عن الواقع المادي. لذلك يغدو عشقه عشقا روحيا طاهرا لا تشوبه الأغراض المادية، إنّه حبّ جوهري أصيل، حبّ إلهي خالص يسعى إلى الارتقاء بالعاطفة و الوجدان، و يغدو جمال المرأة رمزًا للجمال الإلهي المبثوث في كلّ عناصر الوجود، فتغيب المرأة(الأنثى) و تولد المرأة(الرمز) التي تتقمص الوجود و تغمر الكون.

" جَمَالُك يَغْمُر كلَّ الفَجْرِ
أُحِسُّكِ في رَوْعةِ الفَجْرِ
أَسْمَعُ صَوْتَكِ بين النُجُوم
أَلْمَسُ رِيحَكِ في كُلِّ زنبقةٍ تتفتّح..."

إن الجمال الإلهي يغمر كل الوجود و الشاعر يحسّ به في كلّ مظاهر الكون، في الفجر، وبين النجوم، و في كلّ زنبقة تتفتح، و هذا تأكيد لوحدة الوجود التي قال بها ابن عربي.. والمرأة تجلي لهذا الكون المطلق، بل هي أفضل مظاهر تجليه، و أعظم الشهود و أكمله، ولذلك يعشق الشاعر المرأة و يعشق كلّ شيء جميل في الوجود.

وتأسيسا على ما تقدم يمكن القول: إن المرأة بوصفها المحبوبة رمز الأنوثة الخالقة للرحم الكونية، هي علّة الوجود و مكانه. و العاشق لكي يحضر فيها يجب أن يغيب عن نفسه، عن صفاته، لكي يثبت ذات حبيبته، و يتواجد بهذه الذات.

و هنا ينفتح رمز المرأة على دلالات شتى: المرأة رمز للحبّ الإلهي، و الأصل، و الجوهر في الحياة، و السمو على الواقع، و الحقيقة الخفية، و الجوهر المفقود.....الخ.

و هكذا يصبح للمرأة بعد ظاهري محسوس(المرأة / الجسد) و بعد باطني خفي يتوصل إليه بالقراءة التأويلية.

و لعلّ ما يميّز الشاعر عثمان لوصيف في شعره هو المزج بين المرأة و الطبيعة، و إسقاط الصفات الأنثوية على عناصر الطبيعة المختلفة، فروح المرأة حال في كلّ عناصر الوجود، كما أنّ الذات الإلهية حال في الوجود، أو أنّ الشاعر قد فني كليةً في الجوهر الأنثوي، فأصبح لا يرى ذاته ، و لا يرى الواقع خارج هذا الجوهر، فقد تلوّن بلون المرأة، و اتَّشَحَ بوشاحِها، فحيثما تتوجّه ببصرك فثمة وجه المرأة. و هذا الحضور للطبيعة يبدو بشكل واضح في ديواني الشاعر " و لعينيك هذا الفيض" و" اللؤلؤة". و ذلك يمثل مظهرًا من مظاهر وحدة الوجود، فالوجود واحد و إن تعددت تجلياته و ما مظاهر الطبيعة المختلفة إلاّ تجليات للحقّ.

إن الشاعر في توظيفه لمظاهر الطبيعة، لا يقف موقف سلبيا، بل يتفاعل معها باحثًا عن الجوهر القابع بداخلها، عن روحها المستترة، هذه الروح التي تسري في الوجود، وفي عناصر الطبيعة فتضم الكائنات جميعها في نسيج واحد متلاحم، و لكنّ النظرة المادية الرتيبة جعلتنا لا ننتبه لها، و لا ندرك حضورها، و لكنّ الشاعر بحسّه المرهف يستطيع أن يتغلغل بشعوره في صور الطبيعة و أشكالها المختلفة، و بذلك يولّد رموزا صوفية جديدة مصدرها الطبيعة بمظاهرها الحية و الجامدة.

و من علامات الصدق أن يرتبط الشاعر بماضيه و بتراثه، و هذا الارتباط يظهر بجلاء عند الشعراء الجزائريين المعاصرين الذين لا ينسون و هم يلجون أبواب الماضي أنّ هناك تراثا شعريا زاخرا بالرموز الصوفية التي تهز الوجدان، و تدفع بالتالي إلى المزيد من الفعالية في مواجهة التفكك و الانحلال و الهبوط الروحي.